الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز
بين
الغناء والتلحين

د. عبد الرحمن عبد الحميد على

تأصلت نزعة الزهد فى مجالس (عمر بن عبد العزيز) وأخذت طابعها المميز لها خلافته ثم ظهر لهم لون آخر ذكره المؤرخون وكأنه ذكر ليهدم، ويشوه هذا الاتجاه السابق الذى كان سائدا فى حياة عمر بن عبد العزيز.

فما ذكره صاحب الأغانى، وغيره يعد صورة واضحة تمام الوضوح لشطوط هذا الاتجاه وبعده تمام البعد عن حياة عمر وسيرته. ونحن فى هذا لا نريد أن نبدأ بنفى هذا الاتجاه قبل أن نقدم ماقاله التاريخ عن الغناء فى حياة عمر بن عبد العزيز.

فقد ذكر صاحب الأغانى من ألحان عمر بن عبد العزيز هذه الأبيات:

علق القلب سعادا عادت القلب فعادا
كلما عوتب فيها أو نهى عنها تمادى
وهو مشغوف بسعدى قد عصى فيها وزادا

وهذا قليل من كثير ذكره صاحب الأغانى وإذا كان لنا من رأى فى هذا الاتجاه فإن من الواجب علينا معرفة حياة عمر بن عبد العزيز قبل الخلافة فقط حتى نسترشد بها فى إلقاء ضوء على هذا الاتجاه، أما حياته بعد الخلافة فهى تنفى أن نؤيده أبدا بل تنفى هذا الاتجاه نفيا قاطعاً، ويؤكد هذا جميع الروايات المأثورة التى وردت عن حياة عمر بعد الخلافة.

يذكر الطبرى(١) فيقول : لما قدم عمر بن عبد العزيز المدينة ونزل دار مروان . دخل عليه الناس فسلموا ، فلما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة فيهم (عروة بن الزبير) و (عبيد الله بن عبد الله بن عتبة سليمان بن يسار) . و (القاسم بن محمد) وغيرهم . فدخلوا عليه فجلسوا . فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر لهم أنه لا يريد أن يقطع أمراً إلا برأيهم فخرجوا من عنده وهم يجزونه خـــيراً .

وإذا كان هذا من (عمر) فى أول لقاء له مع أهل المدينة فماذا نرجو منه بعد هذا ؟ ، فهذا الاتجاه منه يعبر عن نفسه . ويدل فى وضوح على منهجه ويوضح لنا قوة سيرته هناك ، فهو لم يستدع مثلا طائفة من شعراء الغناء ، أو قينة تغنيه أو جعل حياته منادمات على الشراب ، فهذا لم يكن ، وإنما كان أول حوار له هناك مع الفقهاء ، ورجال الدين ، فهم أولى بالاتصال من غيرهم ، ومن هذا يكون عمر قد أعلن التزامه أمامهم وحملهم مسئولية المشاركة معه فى إرساء دعائم الحق الذى يرجوه . فهل فعل هذا ، واتجه — مثلا — إلى الغناء والتلحين ؟ وهل فعل هذا ، وصاحب الندماء من المغنين ، والمغنيات ؟ وهل طلب الاجتماع بفقهاء المدينة بوجه ، ونظر بوجه آخر إلى ملذاته ؟ ، والتفت إلى شبابه وما فيه من عنفوان . صحيح أنه كان مسرفا شديد الإسراف فى العناية بلباسه ، وكثرة عطره كما أفاض فى ذلك التاريخ ، ولكن هذا الاتجاه لا يلازمه بحال من الأحوال الشغف بالتلحين ، والغناء .

فقد دعا عشرة من الفقهاء الأتقياء وألف منهم مجلساً دائما يستشيره ضامنا بهذا أن تجىء أعماله كلها وفقا لسنة الرسول(٢) هذا ما كان من عمر فهل تجعل ما نسب إلى عمر من تلحين ، وغناء يطغى على هذا الاتجاه ؟ اللهم لا .

---

(١) الطبرى جـ٥ ص ٢١٦ ط الاستقامة .

(٢) الشعوب الاسلامية بركلمان / جـ١ / ١٨٠ ط دار العلم

وقد وثق عمر بن عبد العزيز صلته بالعلماء الذين اشتغلوا بكتابة العلم وبعلم الحديث (١) ، ولعل عمر كان يأمل إلى جعل الحياة فى المدينة تسير فى اتجاه مخالف لما كانت عليه من إسراف فى الغناء مما شاع عن أهل المدينة ، وهذا يتمثل فى وقوفه ضد الفرزدق بعد أن أنذره ألا يتعرض لأحد بمدح أو هجاء .

ولم يطق الفرزدق بعد هذا الانذار ، وظن أن كلام عمر صيحة جوفاء . فعاد إلى ما كان عليه ، ولكنه وجد من عمر تصميما شديداً على إخراجه فخرج وهـو يقول :

وأخرجنى وأجلنى ثلاثا كما وعـدت لملكها ثمود(٢)

ومن هذا يتبين أن (عمر) حاول أن يغير منهج الحياة المألوف الذى كانت عليه المدينة من خروج عن المألوف فى المدح ، والهجاء ، والغناء ، والشراب وغير هذا ففعل ما فعل ، واتصل بالفقهاء لأنه علم أنهم أقوى تأثيراً فى النفوس ، وبهم يسود الدين وينتشر فى جميع الأرجاء .

يقول الجاحظ « ما طن فى سمعه حرف غناء منذ أفضت الخلافة إليه إلى أن فارق الدنيا . فأما قبلها فكان يسمع الغناء ، ولا يظهر منه إلا الأمر الجميل وكان ربما صفق بيديه ، وربما تمرغ على فراشه وضرب برجله وطرب فأما أن يخرج عن مقدار السرور إلى السخف فلا »(٣) .

والمتعمق فى مقالة الجاحظ السابقة يجد أنه يذكر سماع الغناء فقط ، ولم يشر

---

(١) تاريخ الدولة العربية / فلهوزن / ص ٢٥٩ الترجمة العربية

(٢) طبقات فحول الشعراء / ابن سلام / ص ٢٩ ط المعارف محمود محمد شاكر .

(٣) التاج ص ٢٣ ط الاميرية أحمد زكى باشا

إلى التلحين أو الأصوات الغنائية المنسوبة إلى عمر مما أفاضت فيه الأخبار ، وهذا يدعم نظريتنا ويؤكد وجهتنا من نفى التلحين ، والغناء لعمر بن عبد العزيز.

على أن صاحب الأغانى قد ذكر الرأى المعارض لما نسب لعمر بن عبدالعزيز فقال : ومن الناس من ينكر أن تكون لعمر بن عبد العزيز هذه الصنعة ، ويقول إنها أصوات محكمة العمل لا يقدر على مثلها إلا من طالت دربته بالصنعة ، وحذق الغناء ومهر فيه وتمكن منه . ولم يوجد عمر بن عبدالعزيز فى وقت من الأوقات ولا حال من الأحوال اشتهر بالغناء ولا عرف بمعاشرة أهله(١) ، ولا جالس من ينقل ذلك عنه ويؤديه . وأترك صاحب الأغانى وما أشار إليه ، ونذهب إلى بن الجوزى الذى يذكر رأيه فى هذا الاتجاه بدون تعليل . فقد ذكر عن الزبير بن بكار قال حدثنى عمى قال أدركت الناس بالمدينة وهم يغنون لحنا ينسبونه إلى عمر بن عبد العزيز ويذكر هذه الأبيات وهى:

كأن قد شهدت الناس يوم تقسمت ... خلائقهم فأخذت منهم أربعا
إعارة سمع كل مغتاب صاحب ... وتأبى لعيب الناس إلا تتبعا
وأعجب من هاتين أنك تدعى ... السلامة من عيب الخلائق أجمعا
وأنك لو حاولت فعل إساءة ... وكوفئت إحسانا جحدتهما معا(٢)

وينخدع بهذا الاتجاه كاتب حديث فيقول :وحتى عمر بن عبدالعزيز وهو والى المدينة نجده يشتهر بسعادياته(٣)

على أن هناك فرقا آخر وهو أهم ، وهذا الفرق يتضح فى النظر إلى طابع الشعر فى كلا الخبرين ، فحين ننظر إلى الشعر الذى ذكره صاحب الأغانى نجده

---

(١) الأغانى / دار الكتب / جـ٩ ص ٢٥١
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / الجوزى / ص ٣٣٠ط المزيد
(٣) الشعر الغنائى : شوقى ضيف ص ١٠٨ .

غزلى يتغنى الشاعر بمن يحب ، وفيه مافيه من الحب ، والهيام لأنه صادر من عاطفة قوية ، وقلب جياش ، وبحق فقد شاع فى الناس وتغنوا به ولم يبالوا أنه لعمر أم لغيره لما فيه من صنعة محكمة ، وألفاظ عذبة وخيال جميل .

وهو بهذا يخالف تمام المخالفة الشعر الذى ذكره ابن الجوزى فى طابعه وهيئته وفى مضمونه كذلك لأنه قريب الصلة بما يتمثل به عمر فى حياته بل ويتصل كذلك بنهج الشعر الذى يقبل عليه عمر ، ومن هذا يظهر عمق الاختلاف بينهما ، فبينما الأول غزلى صرف نرى طابع الشعر الثانى أخلاقى أو زهدى من بعض الوجوه .

ومن هنا كان رفضنا القاطع لما ذكره كل منهما لأنه لم يظهر فى حياة عمر ما يلقى على هذا الاتجاه بعض القبول

وقد ذكرنا صورة لحياة عمر فى المدينة حينما كان واليا عليها ولم نجد فيها بصيصا يدل على هذا الاتجاه أو يؤثر عنه شىء من هذا القبيل يدلنا بوضوح عن خوضه فى الغناء ، والتلحين .

فعمر كان فى شغل عن هذا ، وحياته ليست مؤهلة لظهور مثل هذا الاتجاه الغنائى أو الخوض فى الحياة الغنائية التى كانت تعج بها بلاد الحجاز آنذاك ، وعلى الإنغماس فى الغناء ، والتلحين بعامة الفقهاء والصالحين الأتقياء اللهم لا . وعلى هذا فكل ما ذكرنا عن عمر بن عبد العزيز سواء كان هذا من جهة غنائه أم تلحينه ، وشغفه بهما هو محض افتراء ، واختلاف ولطالما رأينا الناس إذا أرادوا النيل من أحد العظماء ينخدعون بأقوال يلفقها عليهم خصومهم(١) . وعلى مايبدو أن شخصية عمر النبيلة لم تسلم من الطعن والتجريح .

على أن كل ما ذكرناه يعتبر مقدمة فقط للمجلس الذى نذكره الآن لعمر

---

(١) خطط الشام / كرد على / جـ١ ص ١٦٦

ان عبد العزيز ولا أعرف كيف سمح ابن فلاح أن يذكر ما ذكره بدون إعمال فكر فيه أو إظهار رأيه فيما يذكره(١) .

وإذا كان ابن فلاح قد ذكر هذا نقلا عن صاحب المروج فالمسعودى معروف باتجاهه ضد بنى أمية ، وهو من المنحرفين عن بنى أمية(٢) فكان على ابن فلاح أن يمحص ، ماينقل على الأقل ، ويظهر فيه بعض المعارضة خاصة فيما ينقله عن شخصية كشخصية عمر بن عبد العزيز التى يظهر عليها هذا الافتراء الواضح من المؤرخين .

يقول ابن الفلاح نقلا عن صاحب المروج(٣) إن رجلا من أهل العراق أتى المدينة فى طلب جارية وصفت له قارئة قوالة . فسأل عنها فوجدها عند قاضى المدينة . فأتاها ثم سأله أن يعرضها عليه فأبى القاضى لما علم منه أخبارها بالغناء وهو لا يعلم بذلك . وبعد أن غنت هذه الجارية أمامه استخف القاضى الطرب وفعل مافعل ؟ وقال للطالب ياحبيبى انصرف فقد كنا فيها راغبين . قبل أن نعلم أنها تقول ، ونحن الآن فيها أرغب . وانصرف الفتى وبلغ ذلك عمر فقال قاتله الله لقد استرقه الطرب . وأمر بصرفه عن عمله ، وذهب الرجل بعد هذا إلى عمر مع الجارية ليسمعها إليه بعد حلف قبلا أن عمر لو سمعها فسوف يعدل عن قراره ، وأذن له عمر ثم قال للجارية قولى فغنت :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر

---

(١) شذارات الذهب / جـ١ ص ١٢٠ ط القدسى .
(٢) خطط الشام جـ١ ص ١٦٣ ؟
(٣) مروج الذهب / المسعودى ط جـ٢ ص ١٩٨ : ط السعادة .

بلى نحن كنـــا أهلها فأبادنـــا
صروف الليالى والجـــدود العواثر

ثم يستطرد فيقول فما فرغت حتى اضطرب عمر اضطراباً بينا وأقبل يستعيدها ثلاثا وقد بلت دموعه لحيته ثم أقبل على القاضى فقال: لقد قاربت فى يمينك فارجع إلى عملك راشدا(١) .

وقد حرصنا على ذكر الخبر بتمامه لأنه بهذا الوضع طريف يستحق التسجيل الكامل لا التنويه والايجاز ، وقد حبك هذا الخبر حبكا بحيث يتراءى للناظر أو للقارئ السطحى أنه صحيح ، ولكن الناظر بعمق إلى ماورد فى سياق هذا المجلس ينكره أشد الانكار لما فيه من مخالفات نوضحها فيما يأتى :

١ — أن هذا الخبر ليس له ما يعززه من حياة عمر بعد الخلافة ، وقد سبق رأى الجاحظ فى هذا الاتجاه .

٢ — الخبر بهذه الصورة أدعى إلى رفضه وسقوطه لما فيه من خروج عن المألوف .

٣ — ليس من المعقول أو المسلم به أن يضطرب عمر هذا الاضطراب عندما سمع هذا الشعر — إن كان قد سمعه — الذى ورد فى هذا المجلس ، وإذا كان الخلفاء قبله لم يفعلوا هذا حتى معاوية حينما كان يحرك بعض أجزاء جسمه حين سماعه للغناء ، فكيف يبكى عمر هذا البكاء ؟ حتى تبل لحيته ، ويضطرب هذا الاضطراب الذى ذكرته الرواية بدون خفاء .

٤ — القصة تجنح إلى الخروج عن المألوف خاصة فى سرد بعض ألفاظها التى لم نذكرها ، ولا أدرى لماذا كان هذا الاتجاه مع خليفة مثل عمر بن عبد العزيز .

---

(١) شذرات الذهب جـ١/ص١٢١ ط القدسى .

٥ — أن الشعر الذى ورد على لسان الجارية وإن كانت صورته تثير النفس، والعاطفة بما فيه من ألم ، وتحسر ، ونعى والأيام الخوالى ، وتأكيد صروف الليالى، وفناء الدهر لكل شىء ، ولكن تأثيره لا يفعل فى عمر مثل هذه الصورة الجارحة له .

٦ — على أنى أرى أن بكاء عمر أتى لحبك هذه القصة الطريفة لأن هذا الشعر الذى ورد فى ثنايا هذه القصة يوافق اللون الذى شاع فى مجالس عمر — مثلا — فلا أقل من أن يستشهد به فى سماعه للغناء ويكون هذا مدخلا لقبول سماعه والانفعال به — وبهذا يكون لا هجوم عليه لأنه من لون يوافق طبيعة عمر ابن عبد العزيز .

٧ — مافى الخبر من تناقض فسياق القصة يعطينا أن هذه الجارية مشهورة جداً بدليل المجىء إليها من العراق بينما القاضى الذى عنده هذه الجارية لا يعلم عنها شيئاً وهو يملكها . ألا يعتبر هذا تناقضا مكشوفا .

٨ — ولكل ماسبق نرفض هذه القصة شكلا ، وموضوعا لأنها لا تمت فى قليل أو كثير لمنهج عمر خاصة وهو خليفة المسلمين ، وبعد أن خلع عنه ثياب الدنيا باقية لا انتهاء لها ولا زوال .

٩ — وأغلب الظن أن مثل هذا الاتجاه أتى من اتباع ما ذكره صاحب الأغانى فقد ذكر أن لعمر سبعة ألحان فى سعاد (١) وعلى هذا سار كثير من الكتاب ممن أتوا بعده يروون مايعن لهم من قصص فى سماع عمر للغناء كما سلف أو يذكرون بعض الألحان الأخرى التى نسبت إليه كما ذكر ذلك ابن الجوزى .

وتلحين الغناء يحتاج — فى نظرى — إلى وقت طويل ، وتلق واسع عن

---

(١) الأغانى / دار الكتب جـ٩ ص ٢٧٢

أصحاب هذا الفن ، وخبرة وإستعداد كبير لهذا الاتجاه ، وأن السير فى طريق التلحين يفتح بابا لمخالطة أهل هذا الفن ، والشغف بهم بما يدع لعمر أن يختار أحسن الالحان التى تناسب الأشعار التى يعمل فيها حتى يتحقق أخيراً الابداع الفنى فى المناسبة بين إختيار الشعر ، واللحن الذى يوافقه . هذا من جهة ومن جهة أخرى أن عمر لو سار فى هذا الاتجاه لانشغل به ولم يوفق فى الناحية الأخرى التى إشتهرت عنه وهى رواية الحديث النبوى الشريف ، فهل يتفق هذان الاتجاهان المتناقضان اللهم لا ، وقد روى عن عمر بن عبد العزيز حديث كثير وفقه ، وحمل عنه أهل العلم (١) .

ومن المؤسف حقا أن ينخدع بهذا الاتجاه عالم أديب ، وكاتب بارع له نظرانة الثاقبة الواضحة فى عالم الأدب . أقول انخدع هذا الأديب فوافق أولا على نسبة هذه القصة إلى عمر ، ولم يكتف بهذا بل أدرجها بما فيها من استحسان من عمر تحت باب التجديد ، ودقة الحس ورفاهية الذوق ، وكأنه يزهو بهذا الكشف الذى اكتشفه عن (عمر بن عبد العزيز) مشيراً بذلك إلى أنه كان مجدداً حقاً فى هذا الاتجاه .

وما كنت أحسب أن الناقد يحمل مثل هذه القصة دليلا على كل ما ينسب لعمر بن عبد العزيز . سواء أكان هذا قصصاً من هذا اللون أم غيره ولى سؤال عندة وهو . لماذا ذكر الأستاذ هذه القصة وأشار إليها ثم لم يذكر شيئا من ألحان غناء عمر باعتبارها أوضح فى باب التجديد من هذه القصة ، فهل يفهم من هذا أنه ينكر هذا مثلا بدليل عدم الإشارة إليه؟ ويوافق على نسبة هذه القصة إليه ، ولا يعتبر التلحين تجديدا مثلا ؟ ولماذا يثبت من جانب ويغفل عن جانب آخر له صداه إن أراد الإشارة إلى التجديد (٢) .

---

(١) الأغانى (دار الكتب) جـ٩ ص ٢٧٣ .

(٢) المجددون فى الإسلام : أمين الخولى . ص ٦٤ ط المعرفة .

وكان الأجدر بالأستاذ قبل أن يذكر هذه القصة أن يدلنا على مدخل نستطيع معه أن نقبل مثل هذه الأشياء التى لا تجوز من شخص عمر وأن يعرضها عرضا واضحا قبل الموافقة على مثل هذا الاتجاه وتدوينه بهذه السهولة التى عرضها فى كتابه هناك .

كنت أحب أن يكون له منهج واضح فى تفنيد مثل هذه المزاعم ولا يسير وراء السابقين فى كل ما يقولونه خاصة ما ظهر فيه خلط ، واضطراب كالذى ذكرناه الآن .

ولا يصح كذلك من أى كاتب حديث أن يدلى بدلوه فيما اتجه إليه السابقون إلا بعد أن يعمل فكره وذهنه ، ولا يجعل من كل ما يقوله هؤلاء حججا ودعاوى لا يتطرق إليها الشك أو الاحتمال ، فهذا ما لا نرضاه ، ولا نسلم به فى كل حال ، وخاصة إذا كان فى هذا الرأى ما يثير البلبلة كهذا الاتجاه الذى ذكره تحت باب التجديد .